الفصل الثالث

نحو مراجعة المقولات والآليات فى الحركة الإسلامية

الأستاذ فريد عبد الخالق (*)

(*) الأستاذ فريد عبد الخالق :

* الكاتب وهو الآن فى بداية التسعينيات من عمره يعتبر شاهداً حيًا على مسيرة الإخوان المسلمين منذ الأربعينيات حتى يومنا هذا .
* كان عضو مكتب الإرشاد فى جماعة الإخوان منذ أيام حسن البنا ـ رحمه الله ـ وكذلك أيام حسن الهضيبى رحمه الله .
* قضى قرابة عشر سنوات فى السجن لارتباطه بالإخوان المسلمين .
* نشرت له عدة أبحاث ودراسات فى مجال الدعوة الإسلامية : فكرة وحركة .
* من أهم إسهاماته : (أساسيات فى موضوع الإسلام والحضارة)، ورقة ألقيت فى الندوة العالمية للشباب الإسلامى ـ الرياض ١٩٧٩ ـ و(الإخوان المسلمون : فكرة وحركة) ورقت ألقيت فى ندوة البحرين دعا إليها مكتب التربية للخليج العربى ١٩٨٤ وله كتاب : (الإخوان المسلمون فى ميزان الحق) .
* حاصل على ليسانس وماجستير شريعة ، وعمل مديراً لدار الكتب المصرية ثم وكيلاً لوزارة الثقافة ، وهو الآن محام .

obeikandl.com

obeikandl.com

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى . .

أما بعد فإن نشوء ما يسمى بالحركات الإسلامية أو الجماعات الإسلامية أو الدينية لم يحدث من فراغ . . وليس هو فى ذاته عملاً تجرمه الدساتير الحديثة فى أكثر دول المنطقة . وهو عمل يعد من قبيل أعمال ما نص عليه القرآن من مبدأ التعاون بين الناس على البر والتقوى دون التعاون على الإثم والعدوان، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة : ٢]، ومن قبل مبدأ التعاون بين المؤمنين والمؤمنات على أداء واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران : ١٠٤] والأصل فى عمل هذه الجماعات أو الحركات هو الدعوة إلى الخير، أى نشر الدعوة الإسلامية، كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين، وهو أيضًا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمعروف هو: كل ما ينبغى قوله أو فعله طبقا للشريعة الإسلامية ومقاصدها، كالسعى إلى نشر العلم ومحو الأمية والإحسان إلى الفقراء والجهاد فى سبيل الله والدعوة إلى المبادئ الدستورية الإسلامية، كالشورى والعدل والحرية والمساواة، كل ذلك داخل فى مفهوم المعروف فى الإسلام وهو كما نعلم عمل الجماعات الإسلامية الراشدة قديمها وحديثها ولما كان الفكر بطبيعته ليس شيئًا ينبت من فراغ، لا سيما الفكر السياسى والاجتماعى، ومن ثم فإن دراسة هذه الجماعات من منظور الفكر الذى تؤمن به تصدر عنه وما قد يطرأ عليه من تغيرات أو تحولات نتيجة لتفاعل الظروف والمواقف والضرورات.

وحيث إن هذه الدراسة مكلفة بتقديم رؤية مستقبلية، فإن ذلك المطلب يقتضينا نظرة تاريخية ولو كانت مجملة على نشأة هذه الحركات أو الجماعات، وذلك حتى يتسنى لنا أن نعرض لحاضرها، وأن نتطرق من بعد إلى رؤية مستقبلية لها. وهى ـ أى هذه الجماعات ـ على ما يكون بينها من أوجه الاختلاف فى الخطة أو المنهج أو الوسائل، فإن هناك هدفًا نهائيًا يكاد يجمع بينها هو العودة إلى الكتاب والسنة وتطبيق شريعة الإسلام، واعتبار هذا الهدف هو المنطلق إلى التغيير والإصلاح الشامل لواقع المسلمين المتخلف حضاريًا.. ، المتدهور اقتصاديًا.. المتدنى اجتماعيًا.

• نظرة تاريخية لماضى الحركات الإسلامية

من المعروف أن عالمنا العربى والإسلامى مر بمرحلة الاحتلال الأجنبى العسكرى الذى زحف على عالمنا العربى والإسلامى إثر ما طرأ عليه من عوامل الضعف السياسى والعسكرى والحضارى التى شجعت الدول الاستعمارية الطامعة فى خيراته ومميزاته الإستراتيجية على غزوه واحتلال أرضه واستنزاف ثرواته وإنهاك قواه. وقد امتدت هذه المرحلة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، وأن مفسدة الاستعمار الأجنبى لم تخل من مصلحة، إذ إنها نبهت العالم العربى والإسلامى من إغفاءته العلمية والحضارية التى طال زمنها، حيث أفاد المسلمون من احتكاك فكرهم الإسلامى التقليدى بفكر الغرب الذى أخذ منا فيما سبق، ثم سبقنا فيما لحق. وقد كان دور الحركات الإسلامية فى عملية التفاعل مع طروحات الفكر الغربى الذى وفد علينا خلال مرحلة الاستعمار، وتوظيفه فى عملية الإحياء والبعث الحضارى، أقول كان دور الحركات الإسلامية فى هذه العملية دوراً بارزًا. ولقد عرفت منطقتنا ظاهرة «البلقنة» حيث عمد الاحتلال الأجنبى إلى تفتيتها وتقسيمها من خلال تكريس الحدود الجغرافية وتأكيد البنى الثقافية المحلية والعرقية والإقليمية والقومية.

ضاق رواد الإصلاح فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لضعف المسلمين وتدهور أحوالهم ونشوب الخلافات بينهم، فراحوا يبحثون عن أسباب

هذه العلل فكان هناك ما يشبه الإجماع بينهم إلى أن مردها انحراف المسلمين عن دينهم. فلما ظهرت حركة «التغريب» فى المنطقة واستهدفت بث النزعة «العلمانية» بمفهومها المجافى للعقيدة وأصول الإسلام الثابتة والتى ترمى إلى إحلال العلم محل الدين، وفصل الدين عن السياسة والدول، وإقصاء الدين عن المجتمع، زاد اهتمام العلماء والدعاة المصلحين بالدعوة إلى الإحياء الدينى، وإلى قيام الإصلاح على أساس من تعاليم الإسلام وأصوله، وقد تم هذا التحرك من خلال الحركات الإسلامية التى بدأ ظهورها على الساحة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومن أبرز هذه الدعوات أو الحركات، الدعوة السنوسية فى شمال إفريقيا، والحركة المهدية فى السودان، ومن أبرز الدعاة فى تلك الحقبة السيد جمال الدين الأفغانى، والسيد عبد الرحمن الكواكبى، والشيخ محمدعبده، والسيد رشيد رضا. وغيرهم من رواد الإصلاح الذين يعتبرون امتدادًا طبيعيًا لمن سبقهم من الأئمة والدعاة مثل «ابن تيمية» و«محمد بن عبدالوهاب» وكانت مراكز العلم فى البلاد العربية والإسلامية هى مراكز هذه الحركات الإسلامية. ولقد لعبت المساجد الكبرى دورًا أساسيا فى الذود عن الإسلام وبلورة المقاومة للاستعمار الغربى، نذكر منها مسجد «القرويين» فى فاس، و«الزيتونة» فى تونس، و«الأزهر» فى القاهرة» كما بادر العلماء المسلمون فى تأسيس الجمعيات الإسلامية فتأسست جمعية المقاصد الخيرية و«جمعية علماء الجزائر»، و«جمعية أم القرى»، وغيرها من الجمعيات.

حيال ذلك انقسمت الاتجاهات الفكرية فى المنطقة إلى ثلاث فرق:

١ ـ فرقة اتجهت بكليتها إلى المدنية الغربية وحضارة الغرب ومناهج حياته والانحياز له والأخذ عنه دون نظر إلى الإسلام، وترى أن فى ذلك الطريق إلى الإصلاح المنشود. ومن أمثال أصحاب هذا الاتجاه «قاسم أمين» و«لطفى السيد» و«طه حسين».

٢ ـ وفرقة أدارت ظهرها للغرب وعكفت على الاتجاه السلفى التقليدى متمسكة بوجوب العودة إلى القديم، جل هذا الفريق من علماء الدين.

٣ ـ وأما الفرقة الثالثة فهى التى حملت الاتجاه التجديدى فى إطار الإسلام دون الخروج على أصوله وأحكامه، مع القبول بمبدأ الحوار بين الفكرين الإسلامى والغربى، والإفادة من علوم الغرب وثقافته وأنظمته السياسية الديمقراطية وكل ما يقوم به نفع للأمة ولا يعارض أصول الدين، وهى فرقة وسط بين الفرقتين السابقتين وجمع أصحابها بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ومن أبرز رموز هذه الفرقة «جمال الدين الأفغانى»، و«محمد عبده»، و«السيد رشيد رضا»، و«عبدالرحمن الكواكبى»، والفقيه الدستورى الشهير «عبد الرزاق السنهورى»، ومنهم أيضًا «الشيخ حسن البنا» مؤسس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر عام ١٩٢٨، هكذا نجد أن نشوء الحركات الإسلامية فى عهد الاحتلال الأجنبى قد حركته دوافع تاريخية وشرعية نخص منها بالذكر:

الجهاد لتحرير المنطقة من براثن الاحتلال الأجنبى، ثم القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قيامًا بمواجهة التغريب، دعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية وإذا كان الجهاد قد أثمر جلاء الاحتلال الأجنبى فإن عملية مقاومة الجماعات الإسلامية لموجة التغريب والعلمانية لم تزل كل مسوغاتها الشرعية قائمة حتى يومنا هذا. لذلك نستطيع القول بأن بعض الأسباب التاريخية التى أدت إلى نشوء الحركات الإسلامية ما زالت قائمة. ومن المؤسف أن بعض الجماعات الإسلامية أخذت تخلط فى فهمها بين مبررات النشوء ومبررات الاستمرار من حيث خلطها بين فهم التاريخ وفهم الحاضر، بمعنى أوضح فقط أسقطت بعض الجماعات الإسلامية مرحلة الاحتلال الأجنبى بكل مواصفاتها على مرحلة الاستقلال السياسى وما حملته من ظواهر جديدة. مما أدى إلى الصدام المتوقع بين بعض تلك الجماعات والدول والسلطة السياسية الجديدة فى المنطقة والتى قامت بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تزال بعض الجماعات الإسلامية تنظر بعلاقاتها بالدول والسلطة السياسية كما كانت تنظر لعلاقتها بقوى الاحتلال الأجنبى، ومن هنا وجدت بعض الجماعات الإسلامية نفسها فى زاوية الصدام والأزمة مع حكومات أقطارها.

مآخذ على أكثر الجماعات الإسلامية الراهنة:

ومن خلال رؤية نقدية لواقع الجماعات الإسلامية فى وقتنا الحاضر لدينا طائفة

من المآخذ التى تشوبها وتؤثر على عطائها، وقد تكون سببًا فى إعاقة حركتها، أو الانحراف عن أهدافها، نوردها فيما يلى:

١ ـ **افتقار الرؤية الموضوعية الشاملة** لواقعنا العربى والإسلامى وما طرأ عليه من متغيرات على الساحة الدولية وصراع المصالح الكبرى المتلاطمة فيه. إن الافتقار لهذه الرؤية الموضوعية الشاملة تجعل من تحرك الجماعات الإسلامية أقرب ما يكون إلى ردود الأفعال، أو إلى الأفعال المنفلتة اللاإرادية، وبذلك يحرم العمل الإسلامى فرصة إحراز أى تقدم ملحوظ نحو هدفه النهائى. وأول من يسأل عن هذا الأمر قادة العمل الإسلامى لعجزهم عن امتلاك هذه الرؤية ا لاستيعابية نظرًا لقلة معرفتهم ولضيق اطلاعهم؛ ولذلك نجدهم غير مبالين بظواهر عصرنا الجديد من احترام مبدأ التخصص وإعمال مبدأ الشورى فى اتخاذ القرار وغير ذلك.

٢ ـ **غياب خطة العمل الإسلامى:** لا تنجح حركة عقائدية شعبية بغير أن يتوفر لها إستراتيجية أو خطة عمل مدروسة محددة الأهداف والمراحل، موضحة الوسائل لبلوغ الأهداف المرحلية والنهائية. وبدون هذه الخطة يضطرب مسار الحركة وتتعرض لمخاطر قد تودى بحياتها أو تنال من فعاليتها ونمائها واستمراريتها.

٣ ـ **عدم الالتزام الجاد بالمبادئ من داخل الحركة ذاتها:** ومما يؤخذ على كثير من الجماعات الإسلامية أنها لا تلتزم فى ذاتها وفى علاقاتها بالغير بالمبادئ والأصول الإسلامية وعلى رأس هذه المبادئ والأصول، الشورى والعدل والمساواة وحرية الرأى والنقد، وفرض الوصاية والهيمنة على الآخرين، وهى نزعة بارزة لدى عدد غير قليل من الجماعات الإسلامية. وما يتبع ذلك من نزعة تقديس أشخاص القيادة وتصنيف المسلمين حسب درجات الولاء للتنظيم أو قيادته، وفى ذلك لا شك مفسدة للمسلمين وللجماعات الإسلامية.

٤ ـ **الأمية الدينية لدى كثرة من الشباب المسلم:** يلاحظ أن عددًا غير قليل من شبان الجماعات الإسلامية يعانى من الأمية الدينية، ونستطيع رصد ذلك

ماثلا فى صور مختلفة من الغلو، أو ما يسمى بالتطرف الدينى، وهى ظاهرة عرفها المسلمون منذ فترة غير قصيرة فى عدد من الأقطار العربية والإسلامية، والأصل فى هذه القضية أنها ولدت خلف قضبان السجون وتحت سياط التعذيب فى منتصف العقد السادس، وبرزت على الساحة فى أواخر العقد السابع. وقد تلخصت ظاهرة الغلو هذه فى بعدين: **أولاهما:** تكفير الحاكم والمجتمع، وثانيهما تغيير المنكر بالقوة. ولم يعد خافيًا انشغال الرأى العام بها واهتمام أولى الأمر بضرورة احتوائها أو القضاء عليها.

• مشكلات تواجه الجماعات الإسلامية المعاصرة

لقد أصبحت الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة وأمرًا واقعًا تشغل بال الغيورين على الإسلام وأمنه، كما تشغل بال أعداء الإسلام، لأنها تعد مؤشرًا على يقظة المسلمين بعد إغفاءة طالت فى عصور التخلف والضعف، غير أن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود طائفة من المشكلات التى تواجه الصحوة الإسلامية من منظور فكرى وسياسى واجتماعى، ونجمل هذه المشكلات فيما يلى:

١ ـ الحاجة إلى تحديد مواقفها من الصراعات الفكرية والمذهبية المعاصرة، مثل المذهب الشيوعى العقائدى «الماركسى» وما طرأ عليه من تحولات وتطورات فكرية سياسية بعد مجىء «غورباتشيف» لقيادة الاتحاد السوفييتى، والمذهب الحر الليبرالى الذى ينادى بالديمقراطية السياسية والرأسمالية الاقتصادية والإباحية الاجتماعية والفردية النفعية.

٢ ـ تحديد مصطلح «الخلافة» فى منظور الفقه السياسى الإسلامى قديمه وحديثه وهل هى صيغة حكم لها من الصفة التاريخية غير ما لها من الحكم الشرعى. وينبغى فى هذا الإطار تأصيل مفهوم الخلافة كنظام سياسى وتحديد المبادئ الأساسية التى تبنى عليها، فالشورى والعدل والمساواة وكفالة الحقوق والحريات للمواطنين وغير ذلك من القيم الدستورية الإسلامية التى تعتبر من الدعائم الأساسية التى يقوم عليها نظام الحكم فى الإسلام.

٣ ـ حسم بعض القضايا المعلقة مثل الموقع الاجتماعى للمرأة فى الإسلام، وما يتعلق بقضايا الاختلاط والزى والعمل، والإسهام فى الأمور العامة وخاصة السياسية، وحقوقها وحرياتها، وغير ذلك مما يدخل فى هذا الإطار.

٤ ـ قضية الوحدة الوطنية: هناك حاجة ماسة إلى معالجة هذه القضية المهمة من كافة وجوهها فى وضوح وصدق وصراحة من منظور مبادئ الإسلام، وإزالة ما لحق هذه القضية من غبش الجهل، وأهواء أعداء الأمة والملة، ورعونة بعض المتعصبين عن جهل أو هوى.

٥ ـ قضية تطبيق الشريعة الإسلامية من خلال مشروع حضارى إسلامى متكامل تطبيقًا مستنيراً متطوراً يجمع بين التزام المبادئ الكلية والقواعد العامة والأصول الثابتة والأحكام التشريعية الملزمة فى الكتاب والسنة بين ما يأمرنا به الإسلام وتحصنا عليه مبادئه من اجتهاد فى مجال العبادات كما يسميه الأصوليون ومجال القانون العام فى لغة فقهاء القانون الوضعى. ولا خلاف فى أن تطبيق الشريعة قد صار مطلبًا شعبيّا، وليس مطلبا قاصراً على الجماعات الإسلامية.

ونحن نعتقد أن هذه المشكلات لا يمكن أن توجد لها الحلول العلمية والموضوعية إلا إذا أعيد بناء الجسور بين حكام الأقطار العربية والإسلامية، وبين التيار الإسلامى، وتخطى الفجوة القائمة الآن بينهما. ففى ذلك الكسب الحقيقى للإسلام والمسلمين والذى سينعكس أثره على قضايا الحرية والشورى والتنمية والإصلاح والهوية الحضارية والوحدة التى ننشدها لأمتنا.

• رؤية مستقبلية للجماعات الإسلامية

ينبغى ونحن فى صدد دراسة الجماعات الإسلامية أن نضع فى الاعتبار النقاط المحورية التالية:

١ ـ ضرورة الوعى بأن هذه الجماعات بشتى راياتها ومسمياتها تعتبر قطاعات عضوية من شعوبها، تحمل فى نسيجها ومكوناتها أقداراً مؤثرة فى نسيج هذه

الشعوب ومكوناتها بإيجابياتها وسلبياتها. فالجماعات الإسلامية ينبغى إذن أن تدرس فى سياق التطور السياسى والاجتماعى للشعوب العربية والإسلامية، وليس بمعزل عن ذلك.

٢ ـ ضرورة الوعى بأن أقطارنا العربية والإسلامية داخلة فى إطار دول العالم الثالث، أى الدول المتخلفة، وأن الحركات الإسلامية تعمل بالتالى داخل هذا الإطار، أى إطار التخلف.

٣ ـ امتداداً لما ذهبنا إليه ينبغى الإحاطة بشيوع الإرهاصات الإسلامية فى شتى أرجاء العالم العربى والإسلامى الحضارى الشامل. هذا الانتشار السريع للفكرة الإسلامية لا يعنى ألبتة الاستغناء عن مناشدة الرأى العام العالمى فى كثير من الدول المتقدمة نظراً لما لهذه الدول من علاقات هيمنة وريادة مع دولنا العربية والإسلامية، فنحن اليوم نعيش فى زمن قويت فيه شوكة الرأى العام العالمى، واستيقظ فيه ضمير الإنسان، وتهيأ لمراجعات إنسانية لما آلت إليه أحوالها (أى الإنسانية).

٤ ـ وتدعونا الرؤية المستقبلية للحركات والجماعات الإسلامية المعاصرة ونحن نستشرف هذه الآفاق العالمية إلى أن ندق ناقوس الخطر من أن تستنزف الرؤية الاستشرافية وحبسها خلف قضبان الحس الإقليمى المحلى، إن من شأن هذا الانغلاق الوقوع فى الدوامة المحظورة من صدام محلى بين التيار الإسلامى وأكثر أنظمة الحكم، وهذا ما نحذر منه وندعو لتجاوزه. ونحسب أن هذه الجماعات لو كانت على المستوى المطلوب قيادة ورؤية وجماعات لوجدت خطة عمل ثابتة، ولتغير مسارها، ولحققت إنجازات ملموسة فى طريق أهدافها.

والحمد لله على ما يسرَّ لنا من وسع فضله، ولا أقول إلا ما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] والله يلهمنا السداد فى الرأى والصدق فى القول والعمل، والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.